

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذه محاضرة بعنوان: «تدبر القرآن وأثره في تزكية النفوس».

ألقيت مجملها ليلة السبت ١٤٢٩/٣/١٤ هـ، عبر الهاتف على إخوة من الجزائر.

وظاهر من هذا العنوان أن المحاضرة تدور على ثلاثة محاور:

المحور الأول: تدبر القرآن الكريم.

المحور الثاني: تزكية النفوس.

المحور الثالث: فوائد تزكية النفوس على العبد.

وتحت كل محور ما يتعلق به من العناصر!

وأسأل الله بأن له الحمد لا إله إلا هو، الحنان المنان، بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام أن يتقبل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرزقني القبول في الدنيا والآخرة؛ إنه سميع مجيب.

وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: (تَدْعُهُمْ دَعْوَةً مِّنْ دُونِهَا) [المؤمنون: ٦٨].

وقوله -تبارك وتعالى-: (جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ جِجْ) [ص: ٢٩].

وقوله تعالى: (كُكْ كُكْ كُكْ كُكْ) [محمد: ٢٤].

قال محمد بن الحسين الآجري: «ألا ترون -رحمكم الله- إلى مولاكم الكريم كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب T، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاة الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند التلاوة السورة إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلوه، ولم يكن مراده متى أختتم السورة؛ وإنما مراده متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة، والله الموفق»^(١). اهـ

وليلاحظ هنا أن المقصود بالتدبر ليس مجرد العملية العقلية، أو مجرد التلاوة، بدون أن يظهر أثر ذلك في القلب بزيادة الإيمان وما يلزمه من العمل الصالح في الجوارح.

عن مجاهد في قوله T: (جِجْ جِجْ) قال: «يعملون به حق عمله»^(٢).

ولذلك جاءت الآيات في القرآن مشيرة إلى ذلك كما في قوله تعالى:

وقول الله تعالى: (وَيُؤَيِّدُ بِنُوحٍ إِذْ دَعَا إِلَىٰ دِينِهِ) [نوح: ١٠١]

[آل عمران: ١٦٤].

قال تعالى: (تَدْعُهُمْ دَعْوَةً مِّنْ دُونِهَا) [الأنفال: ٢].

وقوله تعالى: (تَدْعُهُمْ دَعْوَةً مِّنْ دُونِهَا) [التوبة: ١٢٤].

وقول الله تعالى: (تَدْعُهُمْ دَعْوَةً مِّنْ دُونِهَا) [الزمر: ٢٣].

تَدْعُهُمْ دَعْوَةً مِّنْ دُونِهَا [الزمر: ٢٣].

ولذلك قلت في تعريف التدبر شرعاً: «.....، والاستفادة من ذلك في إيمان العبد وظهور

أثره في جوارحه».

وقد جاء عن السلف ذم من يقرأ القرآن ولا يتفهمه، ولا يعلم ما فيه ولا يعمل به!

(١) أخلاق حملة القرآن (ص ٤-٥).

(٢) أخلاق القرآن للآجري (ص ٥).

ذكر القرطبي في تفسيره^(١) عن أبي بكر الأنباري بسنده عن زياد بن مخراق قال: قال عبد الله بن مسعود: «إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به».

وبسنده عن ابن عمر قال: «كان الفضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به».

وقال عبد الله بن عمر: «لقد عشنا دهرًا طويلًا وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما أمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدقل»^(٢).

٣- أركان التدبر.

ومما سبق يتضح أن التدبر لابد فيه من أركان وهي:

١- التفكير والتفهم لما ذكره الله في كتابه، والنظر في عاقبة ما تؤول إليه هذه الأمور التي ذكرها الله، والاعتبار والاتعاظ بذلك؛ بحيث يتوصل معرفة حكم المشاهد مما ليس بمشاهد، فيحصل بذلك الإيمان في القلب والتصديق والمعرفة، والتعظيم لأمر الله T.

٢- حصول أثر ذلك الإيمان على الجوارح.

وبدون ذلك لن يحصل التدبر الأمثل للقرآن، فليس المقصود مجرد قراءة القرآن الكريم، فهذا وإن كان فيه خير كثير، إلا أنه ليس هو التدبر الأمثل المطلوب من المسلم.

وهذا يدل عليه ما جاء عن رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم في صحيحهما: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَفْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأَثْرِجَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ.

وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَفْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَفْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرِّيحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَفْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ».

(١) (٤٠/١).

(٢) المستدرك على الصحيحين (٩٩/١)، سنن البيهقي الكبرى (١٢٠/٣).

الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله، وعدم عملهم به.

وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعاً، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد، والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة من الكتاب والسنة لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد، بل ليس فيها إلا الاتباع، وبذلك تعلم أن ما ذكره صاحب مراقي السعود تبعاً للقرافي من قوله: من لم يكن مجتهداً فالعمل... منه بمعنى النص مما يحظر. لا يصح على إطلاقه بحال لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلى دليل.

ومن المعلوم أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة إلا بدليل يجب الرجوع إليه، ومن المعلوم أيضاً أن عمومات الآيات والأحاديث الدالة على حث جميع الناس على العمل بكتاب الله وسنة رسوله أكثر من أن تحصى، كقوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي»، وقوله ﷺ: «عليكم بسنتي...» الحديث. ونحو ذلك ما لا يحصى.

فتخصيص جميع تلك النصوص، بخصوص المجتهدين وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة على غيرهم تحريماً باتاً يحتاج إلى دليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بأراء جماعات من المتأخرين المقرين على أنفسهم بأنهم من المقلدين. ومعلوم أن المقلد الصرف لا يجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء.

وقال صاحب مراقي السعود، في نشر البنود في شرحه لبيته المذكور آنفاً ما نصه: يعني أن غير المتجهد يحظر له. أي: يمنع أن يعمل بمعنى نص من كتاب أو سنة وإن صح سندها لاحتمال عوارضه، من نسخ وتقييد، وتخصيص وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد، فلا يخلصه من الله إلا تقليد مجتهد. قاله القرافي اهـ محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أنه لا مستند له ولا للقرافي الذي تبعه في منع جميع المسلمين غير المجتهدين من العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، إلا مطلق احتمال العوارض التي تعرض لنصوص الكتاب والسنة، من نسخ أو تخصيص أو تقييد ونحو ذلك، وهو مردود من وجهين:

الأول: أن الأصل السلامة من النسخ حتى يثبت ورود النسخ، والعام ظاهر في العموم حتى يثبت ورود المخصص، والمطلق ظاهر في الإطلاق حتى يثبت ورود المفيد، والنص يجب العمل به حتى يثبت النسخ بدليل شرعي، والظاهر يجب العمل به عموماً كان أو إطلاقاً أو غيرهما حتى يرد دليل صارف عنه إلى المحتمل المرجوح. كما هو معروف في محله.

وأول من زعم أنه لا يجوز العمل بالعام حتى يبحث عن المخصص فلا يوجد ونحو ذلك، أبو العباس بن سريج وتبعه جماعات من المتأخرين، حتى حكوا على ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها، وقد أوضح ابن القاسم العبادي في الآيات البيّنات غلطهم في ذلك في كلامه على شرح المحل لقول ابن السبكي في جمع الجوامع، ويتمسك بالعام في حياة النبي ﷺ قبل البحث عن المخصص، وكذا بعد الوفاة، خلافاً لابن سريج اهـ.

وعلى كل حال فظواهر النصوص من عموم وإطلاق ونحو ذلك، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه من

يدلهم عليه عالمون، صحَّ أنهم -بتأويل ما لم يُحجَّب عنهم علمه من آيه الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قد قدمنا صفته آنفاً- عارفون، وإذ صحَّ ذلك فسَدَ قول من أنكر تفسيرَ المفسرين - من كتاب الله وتنزيله- ما لم يحجب عن خلقه تأويله»^(١). اهـ

الوسيلة الثانية: العمل بما فيه.

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ حُنًى) [القلم:٤]: ما كان خلق رسول الله؟ فقالت: «كان خلقه القرآن»^(٢).

عن حذيفة رضي الله عنه قال: «يا معشر القراء، استقيموا فقد سبقتكم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتكم ضلالاً بعيداً»^(٣).

ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا حملة القرآن أو يا حملة العلم، اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقات، يباهي بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه أولئك، لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى»^(٤). اهـ

ويروى عن الحسن البصري: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم له بتأويله، وما تدبر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى القرآن له في خلق ولا عمل حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس، والله ما هؤلاء بالقراء ولا بالعلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء مثل هذا ؟ لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء»^(٥). اهـ

ويذكر عن الحسن البصري قال: «أمر الناس أن يعملوا بالقرآن فاتخذوا تلاوته عملاً»^(٦).

الوسيلة الثالثة: تعليمه والدعوة إليه.

وقد جاء في الحديث: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

(١) تفسير الطبري (١/٨٠-٨٣).

(٢) صحيح مسلم (٧٤٦).

(٣) صحيح البخاري (٧٢٨٢) كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٢٠).

(٥) سنن سعيد بن منصور (٢/٤٢٠)، شعب الإيمان للبيهقي (٢/٥٤١)، الزهد لابن المبارك (١/٢٧٤).

(٦) تفسير السمعاني (ج ٤/ص ١١٩)، مدارج السالكين (١/٤٥١)، تلبيس إبليس (١٠٩).

وعن عبد الله بن عمر قال: «عليكم بالقرآن فتعلموه وعلموه أبناءكم؛ فإنكم عنه تسألون، وبه تجزون، وكفى به واعظاً لمن عقل»^(١).

الوسيلة الرابعة: قيام الليل به.

لأنه أكثر الأوقات مواطاة للقلب، قال تعالى: (فَقُفُّوا قُلُوبُكُمْ) [المزمل: ٦].

والمصلي في قراءته وصلاته إنما يناجي ربه؛ عن البيضاوي رحمته الله: أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال: «إن المصلي يناجي ربه **فلينظر ما يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**»^(٢).

عن عبد الله بن المبارك قال: «سألت سفيان الثوري قلت: الرجل إذا قام إلى الصلاة أي شيء ينوي بقراءته وصلاته؟ قال: ينوي أنه يناجي ربه»^(٣).

وقال قتادة: «ما أكلت الكراث منذ قرأت القرآن»^(٤).

الوسيلة الخامسة: استحضر القلب عند قراءته.

لأنه موجه من الله إليك، وأمره، ونواهيته، ونداءاته، وآياته رسائل من الله إليك!

قال ابن مسعود رحمته الله: «من أراد العلم فعليه بالقرآن؛ فإن فيه خبر الأولين والآخرين»^(٥).

(١) مشكل الآثار للطحاوي (١/١٧١).

(٢) مسند الإمام أحمد (٤/٣٤٤)، وصححه أحمد شاكر.

(٣) تعظيم قدر الصلاة (١-٩٢).

(٤) فضائل القرآن ومعالمه لأبي عبيد (ص ٥٥)، وانظر: الدر المنثور (١/٢٧٨).

(٥) خرّجه أخي أحمد في غاية البيان فقال: صحيح لذاته: أخرجه سعيد بن منصور في السنن (١/٧١ رقم ١) ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٣٣٢ رقم ١٩٦٠) حدثنا حديج بن معاوية عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود عنه به. وأخرجه مسدد في المسند (١٣/١٧ رقم ٣١٠٠-المطالب)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد (١٥٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/٣٦٦ رقم ٨٦٦٦)، وابن حزم في الأحكام (٨/٤٨٨) من طرق عن شعبة عن أبي إسحاق عن مرة عن عبد الله قال: من أراد العلم فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين.

وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٩٦)، وابن أبي شيبه في المصنف (٦/١٢٧ رقم ٣٠٠٠٩)، وعبد الله بن المبارك في الزهد (٢٨٠ رقم ٨١٤)، ومن طريقه الفريابي في فضائل القرآن (١٨١ رقم ٧٨)، وأخرجه النحاس في القطع والإتقان (٩/٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/١٣٥ رقم ٨٦٦٤) من طرق عن أبي إسحاق عنه به. وإسناده صحيح لذاته. ورواية شعبة عن أبي إسحاق قبل اختلاطه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٦٥): رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

ومعنى: يثور أي: ينقر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته ومفاتيحه العلماء به في تفسيره ومعانيه. انظر: النهاية

وقال الحسن بن علي عليه السلام: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار»^(١).

وقال الحسن البصري رحمته الله: «قراء القرآن ثلاثة أصناف:

فصنف اتخذوه بضاعة يأكلون به.

وصنف أقاموا حروفه وضيعوا حدوده، واستطالوا به على أهل بلادهم، واستندروا به الولاية كثر هذا الضرب من حملة القرآن، لا كثرهم الله.

وصنف عمدوا إلى دواء القرآن فوضعوه على داء قلوبهم فوكدوا به في محاريبهم، وحنوا به في برانسهم، واستشعروا الخوف، وارتدوا الحزن، فأولئك الذين يسقي الله بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء، والله لهذا الضرب في حملة القرآن أعز من الكبريت الأحمر»^(٢).

=

لابن الأثير (٢٢٩/١)، ولسان العرب (١١٠/٤) لابن منظور.

(١) التبيان للنووي (٢٨).

(٢) فضائل القرآن ومعالمه لأبي عبيد (ص ١٣٨) (الشاملة)، أخلاق حملة القرآن (ص ٦٥) (الشاملة)، مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر (ص ٢٤) (الشاملة)، شعب الإيمان للبيهقي (١٤٥/٦) (الشاملة).

المحور الثاني

تزكية النفوس

ويشتمل هذا المحور على النقاط التالية:

١- بيان معنى تزكية النفس.

٢- أهمية تزكية النفس.

٣- أحوال النفس بحسب تركيبها.

٤- بم تحصل تزكية النفس.

وإليك بيانها:

١- بيان معنى تزكية النفس:

الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح وكمال الشيء يقال: زكا الشيء إذا نما. وفي الشرع: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ومن البدع والمعاصي؛ وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات^(١).

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ: «قال الله تعالى: (كُفِّرْ كُفْرًا) [التوبة: ١٠٣]؛ فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة لتلازمهما؛ فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الرغل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أن البدن إذا استقرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع فمنها البدن.

فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استقرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجوانب الفاسدة والمواد الرديئة: زكا ونما وقوى واشتد وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت؛ فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته كما قال تعالى: (يُجِجُ فِيهِ دُودٌ) [النور: ٣٠]، فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

والمقصود: أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استقراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة.

(١) من كلام ابن كثير في تفسير سورة فصلت.

فسبيل التزكية هو ما يقوم عليه الدين وهما أصلان:

* أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ.

* وألا نعبد الله إلا بما شرع.

ويوضح ذلك: أن التزكية طهارة النفس من درن الشرك والإلحاد، وحبوب المعصية، وذلك

طريق الفلاح؛ و (أ ب ب) [المؤمنون: ١].

و(يـ □ □ □) [الأعلى: ١٤].

و(قُذِّجَ ج) [الشمس: ٩].

وطريق الفلاح إنما هو بتقوى الله تعالى: (□ □ ی ی □ □ □ □ □ □ □ □)

[الطلاق: ٥].

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما.

وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الآخر.

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة وهم المؤمنون بها.

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة:

قال الله تعالى: (وَوَلَوْ وَؤُؤْ).

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام وليس المراد بها حقيقة الاستفهام؛ ولهذا قال

بعض الناس: إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التي تقتضي التحقيق.

ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ومعنى بديع؛ فإن المتكلم إذا

أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به وإحضار الذهن له، صدر له الكلام بأداة

الاستفهام لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به؛ فتارة يصدره بـ (ألا).

وتارة يصدره بـ (هل) فيقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت، إما مذكراً به، وإما واعظاً

له مخوفاً، وإما منبهاً على عظمة ما يخبر به، وإما مقررراً له.

فقوله تعالى: (□ □ ي ي)، و(ج ج ج ج)، و(ث ث ث ث)، و(و و و و و و) متضمن

لتعظيم هذه القصص، والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته ففيه أمر آخر؛ وهو التنبيه على أن

إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير

إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا أم لم يأتك إلا من قبلنا؟!

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام وتأمل عظم موقعة من جميع موارد يشهد أنه من

الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: (وَوُؤْ) متضمن لثنائه على خليله إبراهيم فإن في (وُ) قولين:

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم؛ ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.

والثاني: أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى: (ث ث ث ث)؛ وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله

ومدحه؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.

وقوله: (و ي ي ي ي) متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به،

فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلاماً. وتحية إبراهيم لهم باسم

مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره: سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم.

ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث،

فلما علموا منه ذلك قالوا: (ي ي ي □ □ □) وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: (□ □) لا يولد لمثلي فأنى لي بالولد.

وأما إسماعيل فإنه من سريره هاجر، وكان بكره وأول ولده، وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب)، وهذه هي القصة نفسها. وقوله تعالى: (□ □ □ □ □ □) فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها؛ إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: (□ □) فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل: أنا عجوز عقيم واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

وقوله تعالى: (□ □ □ □ □ □) متضمن لإثبات صفة القول له، وقوله: (□ □ □ □ □ □) متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر؛ فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال؛ فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية، والقدرة، والبقاء، والسمع، والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام. والحكمة تتضمن كمال الإرادة، والعدل، والرحمة، والإحسان، والجود، والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهاها، ويتضمن الإرسال، وإثبات الثواب والعقاب.

كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثاً وسدى وباطلاً؛ فحينئذٍ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب؛ ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك، وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة، ووقوعه أخرى؛ فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمية لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس.

وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفرًا كبيرًا؛ لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من

هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ويخشى عذاب الله تعالى.

كما قال الله تعالى في موضع آخر: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَعَلَّكُمْ تُفْقَهُونَ).

وقال تعالى: (□ □ □) فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة.

و أما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ.

والمقصود بهذا: إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط

أسراره وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء»^(١) اهـ.

هذا ما تيسر لي في هذا الموضوع جمعه وكتبته، سائلًا الله أن يرزقني القبول في الدنيا

والآخرة، وأن يجعلني هاديًا مهديًا، وصل اللهم على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد

وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

(١) الرسالة التبوكية (زاد المهاجر إلى ربه) / لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (ابن قيم الجوزية ت ٧٥٩هـ) / نشر: مكتبة المدني جدة/تحقيق: د. محمد جميل غازي/ (ص ٦٣-٧٢).